# طه حسين ومنهج الشكّ الديكارتي
# والمسألة الهوميرية
# (دراسة مقارنة)

**عبد القادر بوزيده**
**- جامعة الجزائر**

عندما ظهر كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» ، أثار ضدّه عاصفة من الاستنكار والنقد والتجريح ، كانت الصدمة التي أحدثها قوية . وكانت الثورة ضدّه عامة ؛ فقد التقى الأزهريون وغير الأزهريين على التنديد به ، وطرحت قضية الكتاب أمام البرلمان ، وٱرتفعت أصوات تنادي بإحراق الكتاب وبمعاقبة صاحبه . وكان الاستنكار من القوّة بحيث ٱضطر المؤلف إلى أن يعيد إخراجه في ثوب جديد (كتاب «في الأدب الجاهلي») حذف منه أشياء جاءت في الكتاب الأوّل وعدّل أشياء وأضاف أخرى .

ما الذي أثار حفيظة هؤلاء كلّهم ؟ هل هو تأثر طه حسين بمناهج غربيّة وٱقتباسه لأفكار تضمّنتها كتب غربية ؟ لقد كان نقّاد من أصحاب المدرسة التقليديّة يأخذون على المجدّدين تمثّلهم لأفكار وأشكال غربيّة ، وٱنتقدوهم عندما تخلّوا عن أغراض الأدب العربي وفنونه التقليدية وٱنصرفوا الى ٱصطناع ألوان وأجناس جديدة : أحجم محمد حسين هيكل عن تسمية مؤلفه «زينب» رواية وأحجم أن ينسبه إلى نفسه ؛ وكان على محمود تيمور وزملائه من أصحاب «المدرسة الحديثة» أن يخوضوا صراعاً طويلاً ليفرضوا فنّ القصة والأقصوصة في شكله الغربي الحديث الخ ... ولكنّهم رغم ذلك لم يواجهوا بما وُوجه به طه حسين ولم يعانوا ما عاناه . الكتاب الوحيد الذي أثار ردود فعل شبيهة هو كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» ، رغم أنّه لم يقتبس في الظاهر شيئا من الغرب ، وانّما اعتمد أساساً على نصوص القرآن الكريم ،

وسيرة الرسول عليه السلام ، وتاريخ الخلافة الإسلامية . فما الذي جعل كتابا في الشعر الجاهلي وكتاباً في أصول الحكم في تاريخ الدّول الإسلامية ، ظهرا في فترة متقاربة ، يثيران كلّ ردود الفعل هذه التي قادتها إلى المحكمة . تلك أسباب سنحاول تبيّنها في نهاية هذه المقالة المختصرة .

تأثر طه حسين في كتابه عن الأدب الجاهلي بالغربيّين دون شك . تأثر بهم في منهج الدراسة من جهة ، وفي الحجج التي كان يسوقها للشكّ في الشعر الجاهلي من جهة أخرى . والدراسة لمثل هذه العلاقات التأثريّة تدخل في إطار الأدب المقارن . ولكن المناهج التي درست بها هذه العلاقة بين الآداب عموماً وبين الأدب العربي والآداب الغربيّة خصوصاً هي مناهج تقف من الظاهرة عند السطح ولا تلج أعماقها ؛ تدرس الظاهرة دراسة وصفيّة محضة ولا تحاول أن تحلّلها وتتبيّن أسبابها ، وهي لهذا لا تستطيع أن تدرك الوظيفة التي يمكن أن يلعبها العنصر الأجنبي المجلوب في المساعدة على طرح بعض القضايا التي يمكن أن يحجم عن طرحها الكاتب أو المفكّر الذي ينتمي للبلد أو الحضارة المستوردة ؛ كما أنّها لا تستطيع أن تفسّر الالتجاء إلى هذا المفكّر أو الأديب أو التيار الأجنبي بالذات ، وهل هي مسألة مصادفة فقط أم تتعلّق بالذوق والميل الخاص للمفكّر أو الأديب المتأثر ، أم أنها على العكس من ذلك تأتي استجابة لاحتياجات عميقة تستشعرها الأمّة المستقبلة وتبحث عن طرق لبلورتها والتعبير عنها ؟ .

لعلّ مثل طه حسين في علاقته بالفكر والنقد الغربيّين أن يكون أحد الأمثلة التي تساعدنا على تبيّن هذه المسألة . ولقد نبّهني لأهمية هذا الموضوع بحث كنت قدمته سنوات الدراسة عن «المسألة الهوميرية» وراعني وأنا أتدرّج مع هذه المسألة وجود شبه كبير بين الآراء التي قدّمها نقاد غربيون حول هذه المسألة وتلك التي قدّمها طه حسين حول ما يمكن أن نسمّيه بمسألة الشعر الجاهلي . ليس هذا فحسب ، بل إنّ المنهج الذي أسّس عليه طه حسين بحثه في الشعر الجاهلي هو منهج لم يألفه المفكّرون والنقاد العرب آنذاك ، رغم أن أصوله موجودة في الدراسات العربيّة القديمة ؛ إنّه منهج الشكّ «الديكارتي» . يقول طه حسين في حديثه عن المنهج الذي اصطنعه في كتابه عن الأدب الجاهلي : «أريد أن أقول إني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استخدمه «ديكارت» للبحث عن حقائق الأشياء في أوّل هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسيّة لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن ممّا قيل فيه خلوّا تاما . والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم

ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرا ، وأنّه قد جدّد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غيّر مذاهب الأدباء في أدبهم والفنّانين في فنونهم .

«فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كلّ ما قيل فيها من قبل . وخلصنا من كلّ هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسميّة الحرّة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرّة أيضا»[1] .

هذا المنهج هو الذي ٱصطنعه طه حسين عندما تعرّض لما قاله القدماء حول هذا الشعر العربي القديم ؛ فهو لا يقف منه موقف التقديس بل موقف المتسائل المتشكّك ، يقول طه حسين : «نحن بين اثنين : إما أن نضع علم المتقدّمين كلّه موضع البحث . لقد أنسيت فلست أريد أن أقول البحث ، وإنّما أريد أن أقول الشك ، أريد ألاّ نقبل شيئا ممّا قاله القدماء في الأدب وتاريخه إلاّ بعد بحث وتثبّت (...) والفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم ، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضا ، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود . المذهب الأوّل يدع كلّ شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل (...) أمّا المذهب الثاني فيقلب العالم القديم رأسا على عقب وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئاً كثيراً»[2] .

وليس يهمّنا هنا أن نتتبّع بالتفصيل كيف طبّق طه حسين منهج الشكّ الديكارتي في كتابه هذا ، فذلك حديث يطول وتضيق به هذه المقالة المختصرة ، وإنما نشير فقط إلى أن طه حسين قد حاول بالفعل أن يطبّق مبادىء الطريقة الديكارتية ، فكان لا يفصل في مسألة إلاّ بعد أن يحاول التثبّت منها ويعرضها على محك العقل ؛ كما كان يسعى إلى تقسيم وتجزئة كل صعوبة تعترضه إلى العناصر المكونة لها ويحاول أن يتعامل معها عنصرا عنصرا حتي يسهل عليه اكتشاف الحقيقة ؛ وهي كما ترى الطريقة نفسها التي ٱصطنعها ديكارت . بل إن طريقة الكتابة التي اعتمدها ديكارت هي التي ٱعتمدها طه حسين . فقد لجأ ديكارت إلى اللغة الفرنسية وفضّلها على اللاتينية محاولاً بذلك التميّز عن القدماء والوصول حتى إلى أفهام البسطاء ؛ وهو نفس ما فعله طه حسين عندما ٱصطنع لغة سهلة بسيطة[3] تتميّز بعض التميز عن اللغة القديمة ويمكن أن يفهمها القارىء العادي وخاصة من بين الفئات الوسطى التي بدأت تغزو ساحة القراءة .

إن ما يهمنا أساسا في هذه المقارنة البسيطة هو أن نبيّن أن طه حسين قد ٱصطنع منهج

الشكّ الديكارتي بالذات ليقلب العالم القديم رأسا على عقب كما يقول ، وليشكّك في قداسة ما قاله القدماء ويؤكد أنه يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب ؛ بل إنّ الشيء الكثير منه قد أتى عليه الفساد ووجب الاعراض عنه وتعويضه بالجديد . وإن دراسته للشعر الجاهلي وسلوكه نفس المسلك الذي سلكه نقّاد غربيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في دراسة الشعر الهوميري إنّما ينطلق من نفس المنطلق وينحو نفس المنحى .

وليس من شكّ في أن طه حسين ، وهو يكتب كتابه عن الشعر الجاهلي ، كان متأثرا شديد التأثر بما كتبه النقاد الغربيون حول المسألة الهوميرية وخاصة ماكتبه الأخوان «كراوزي» Croiset في مؤلّف «تاريخ الأدب اليوناني» ، وهو يقرّ بذلك صراحة ، ويؤكدّ بأنه تابع الدروس التي كان يلقيها «ألفريد كراوزي» Alfred Croiset بجامعة السوربون ، وأنّه كان شديد الإعجاب بالكتاب الذي ألّفه مع أخيه حول تاريخ الأدب اليوناني[4] .

وإن الذي يمعن النظر في آراء النقاد الغربيين الذين شكّكوا في صحّة نسبة الإلياذة والأوديسة الى شاعر يسمى هوميروس ، والحجج التي قدّموها ، يجد شبها كبيرا بينها وبين تلك الحجج التي ساقها طه حسين للشكّ في صحّة الشعر الجاهلي . كان القدماء يعتبرون «الألياذة» والأوديسية» عمل شاعر يسمى هوميروس ، وقد حازت هاتان الملحمتان شهرة واسعة عند اليونان . وكان الأطفال يدرسونها ويحفظون بعض مقاطعها ؛ وقد بلغت هذه الشهرة درجة جعلت أفلاطون يقول «إن هذا الشاعر هو الذي علّم الاغريق» ، لكن بعض القدماء شذّوا عن هذه القاعدة ، فنسبوا «الألياذة» و«الأوديسة» لشاعرين مختلفين ، وهؤلاء يسمون «les Chorizontes» ، أي الذين يفرّقون ، وقد آهتم نقاد العصر الاسكندري بجمع القصائد الهوميرية ، ولكنّهم في الوقت نفسه شكوا في صحتها المطلقة وقالوا إن هناك زيادات دخلت على القصيدتين الأصليتين .

تم يمضي العصر الإسكندري ، ولم يظهر بعده نقّاد يشكون في صحة نسبة «الألياذة» و «الأوديسة» بعد أن أعاد «أريستارك» (Aristarque) للقصيدتين وحدتها ، حتى جاء القرن السابع عشر ثم القرن الثامن عشر فعمد بعض دعاة الجديد إلى النيل من كلّ ما هو قديم وخاصة هوميروس ؛ فرأوا في «الألياذة» و«الأوديسة» مجموعة قصائد متفرّقة جمعت على نحو معيّن ، لكن هذه الأفكار لم تحض في ذلك الوقت بتأييد قويّ . ففي سنة 1715 ظهر كتاب للقديس «دوبنياك» (D'Aubignac) لا يعترف فيه بقيمة «الألياذة» والأوديسة» ويعتبرهما مجموعة مقاطع غير متناسقة . لكن أحداً لم يلتفت للكتاب عند صدوره .

هذا الكتاب استفاد منه «فولف» (Fréderic Auguste Wolf) سنة 1795 في دراسته الشهيرة «Prolégomena ad Homerum» حيث درس نفس المشكلة بمقدرة وحذق ، وحاول إقامة الحجّة على أن الكتابة لم تكن معروفة عند الاغريق قبل القرن السابع ق . م ، وأنّ القصائد الهوميرية قالها شعراء مختلفون ثم تناقلها الناس معتمدين على الحافظة ، ولم تسجّل هذه الأشعار إلا في القرن السابع ق.م . وتتلخّص آراء «فولف» ومن تأثر به فيما يلي :

1) لم تكن الكتابة موجودة عندما قيلت القصيدتان ؛ وبدون كتابة لا يمكن الاحتفاظ بقصائد تبلغ هذا الطول : وهي حجّة «فولف» الأساسيّة .

2) هناك مقاطع أحسن بكثير من مقاطع أخرى ولها طابع جمالي مغاير ؛ وهو ما يحمل على الاعتقاد بأنها لم تكن من تأليف شاعر واحد .

3) هناك تناقضات كثيرة في الألياذة .

4) العامل اللّغوي : نجد في الألياذة اختلافاً شديداً في اللهجات .

وقد نالت آراء «فولف» هذه شهرة واسعة وأصبح لها تأثير عظيم ، فاعتمدها في القرن التاسع عشر كثير من الدارسين واهتمّوا بالبحث عن التضارب واختلاف اللهجات المستخدمة والطبائع التي صورها هوميروس في الألياذة . وقد قادهم هذا البحث إلى وضع افتراضين :

- الافتراض الأوّل : «الألياذة» مجموعة قصائد مختلفة ركبت على نحو معيّن .

- الافتراض الثاني : هناك قصّة رئيسية سموّها «غضب آخيل» ، ثم أضيفت إليها أشياء كثيرة .

انتشرت آراء «فولف» في فرنسا ولاقت شهرة واسعة وفي 1887 نشر «كروازي» (Croiset) الجزء الأوّل من «تاريخ الأدب الاغريقي» (Histoire de la littérateure greque) الذي تعرّض فيه للمشكلة نفسها ؛؛ وهو الكتاب الذي تأثر به طه حسين . كما أشرنا ، تأثراً كبيراً .

ومما يلفت الانتباه أن طه حسين وهو يتحدث عن الشعر الجاهلي ما فتئ يذكر الأدب الإغريقي ويشير إلى نقاط التشابه بين الأدب العربي الجاهلي وهذا الأدب الإغريقي، ويقارن بين لغة «قريش» ولغة «الأثينيين» وكيف أنّ اللّغتين غلبتا على اللّهجات الأخرى لغة للشعر والكتابة . كما كان يقارن بين شعر اليونان وقصصهم من جهة ، وشعر العرب وقصصهم من جهة أخرى ، ويقارن بين شاعرهم هو ميروس وشاعر العرب امرىء القيس والطابع الأسطوري الذي أضفي على الشخصيتين يقول طه حسين : «ان شخصية امرىء القيس .. أشبه شيء بشخصية الشاعر اليوناني هوميروس . لا يشك مؤرخو الآداب اليونانية الآن في أنها وجدت حقا . (...)

ولكنهم لا يعرفون من أمرها شيئا يمكن الإطمئنان إليه ، وإنما ينظرون الى هذه الأحاديث التي تروى عنه كما ينظرون إلى القصص والأساطير لا أكثر ولا أقل (...) ومن غريب الأمر أن طائفة من الشعر تنسب الى أمرىء القيس على أنّه قالها حينما كان متنقّلا في القبائل العربية يمدح هذه ويهجو تلك ، وتتصل بهذه الأشعار طائفة من الأخبار تبين نزول أمرىء القيس في هذه القبيلة ، والتجاءه إلى تلك القبيلة ، وجواره عند فلان وٱستعانته بفلان . وان شيئا مثل هذا يلاحظ في حياة هوميروس ؛ فهو ، فيما يزعم رواة اليونان ، قد تنقل في المدن اليونانية فلقي من بعضها الكرامة والتجلّة ، ومن بعضها الاعراض والانصراف . ومؤرخو الآداب اليونانية يفسّرون هذه الأحاديث على أنّها مظهر من مظاهر التنافس بين المدن اليونانية ؛ كلّها يزعم لنفسه أنّه ضيّف هوميروس أو نشأه أو أجاره أو عطف عليه .

«ونحن نذهب هذا المذهب نفسه في تفسير هذه الأخبار والأشعار التي تمسّ تنقّل أمرىء القيس في قبائل العرب»[5] .

لقد كان طه حسين وهو يؤلف كتابه عن الشعر الجاهلي يفكّر في الوقت نفسه في الشعر اليوناني وما كتب عنه في النقد الغربي وخاصة ما كتبه الإخوة «كروازي» . ولقد كان «كروازي» يرفض نسبة أغلب ماجاء في الألياذة الى شاعر يسمّى هوميروس ؛ وكان طه حسين يقول بصدد الشعر الجاهلي قولاً شبيهاً : «فأوّل ما أفجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي وألححت في الشك (...) فأخذت أبحث وأفكّر وأقرأ وأتدبّر ، حتى انتهى بي هذا كلّه إلى شيء إلاّ يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك أنّ الكثرة المطلقة ممّا نسمّيه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء وانّما هي منحولة بعد ظهور الإسلام»[6] .

والأسباب التي يسوقها «كروازي» لتفسير الزيادات والانتحال هي تقريبا تلك التي يسوقها طه حسين ، إذ يرى «كروازي» أن خيال الرواة الذين يسعون الى اثارة المستمعين هو الذي جعلهم يضيفون الشيء الكثير للقصائد التي نقلوها ؛ وكذلك هذا الاتجاه لدى كلّ شعب لتعظيم ماضيه اذ لم يفتأ اليونانيون يضيفون أشياء جديدة جميلة للقصص الأولى التي تحكي ماضيهم . وهو ما يراه طه حسين بخصوص الأدب الجاهلي ؛ فقد وضعت أشعار كثيرة نسبت إلى العصر الجاهلي من طرف مسلمين في رأيه . وكان غرضهم هو تمجيد ماضي الرسول ، وماضي عائلته وقومه والعرب بصورة عامة . وقد أضيفت أسباب أخرى الى عوامل الانتحال هذه مثل الصراع الذي كان قائما بين العرب وغير العرب من الشعوبيين والصراع الذي كان دائرا بين القبائل العربية نفسها الخ ...

وهناك أسباب أخرى وحجج يسوقها كلّ من كروازي وطه حسين لتأكيد صحّة ماذهبا إليه ومن هذه الحجج :

1) أن القصائد الهوميرية أو الجاهلية كانت تنقل مشافهة إذ لم تكن الكتابة قد عرفت وقتها ، ومرّت فترة طويلة قبل أن تدوّن تلك القصائد الطويلة . وكان لابدّ أن تدخل تعديلات كثيرة على هذه القصائد وهي تمرّ من راوٍ الى راوٍ على أن هناك الكثير من الحقائق التي تجعلنا نشك في نزاهة هؤلاء الرواة . ويذكر «كروازي» قصة «Onomacrite» الذي أمره «Pisistrate» بكتابة قصائد هوميروس ، فكتبها وأضاف إليها حتى افتضح أمره . أما طه حسين فيذكر حماد الراوية وخلف الأحمر ويورد كثيراً من شهادات معاصريهم تطعن في نزاهتهم .

2) على أن الحجّة التي ركّز عليها طه حسين وكان في ذلك متأثراً أيضاً بما قيل حول المسألة الهوميرية ، هي قضية اللغة . كان الذين شككوا في صحّة نسبةالأليـاذة والأوديسة الى شاعر واحد يبنون شكّهم على وجود لهجات عدّة في الملحمتين . أمّا طه حسين فقد كان ينطلق من حقيقة وجود لغتين مختلفتين في الجزيرة العربية : لغة عدنان ولغة قحطان ، ووجود لهجات مختلفة داخل لغة عدنان لكن الشعر الذي وصلنا كان في لغة قريش وحدها ، وما هي إلاّ لهجة من بين لهجات أخرى ضمن لغة عدنان .

ولسنا في حاجة إلى الإشارة التفصيلية الى كلّ التشابهات بين الحجج التي يسوقها طه حسين للشك في صحّة الشعر الجاهلي وتلك التي ساقها نقّاد غربيون للشكّ في صحّة نسبة «الأليـاذة» و«الأوديسة» لشاعر يسمّى هوميروس ؛؛ فالشبه واضح كما أنّ الشبه واضح بين منهج ديكارت والمنهج الذي أصطنعه طه حسين في كتابه عن الشعر الجاهلي . والسؤال الذي يبقى مطروحاً ونحاول اقتراح إجابة عليه الآن هو : لماذا وقع أختيار طه حسين على منهج ديكارت بالذات ؟ وما هي الأسباب التي جعلته يتأثر بالنقد الذي دار حول المسألة الهوميرية ؟

إنّ أيّ ظاهرة فكرية أو نقدية بارزة إنما تأتي مصاحبة لواقع تاريخي معين ، وتحاول أن تجيب على الأسئلة التي يطرحها هذا الواقع التاريخي ، وتعبّر بصورة أو أخرى عن القوى التي تتصارع في رحم هذا الواقع التاريخي خاصة إبان التحوّلات الكبرى . ولم يأتِ منهج ديكارت مصادفة بل جاء مصاحباً للتطورات التي عرفتها المجتمعات الأوروبية عامة والمجتمع الفرنسي خاصة . فقد نشأت في رحم المجتمع الاقطاعي القديم المستنيم الى قناعاته الراسخة قوة تغيير لم تعد تقبل الواقع القائم ولا تركن الى هذه القناعات الراسخة ؛ بل بدأت تسعى الى بناء قناعات وقيم جديدة ؛ وكانت أوّل رحلة في هذا الطريق هي البدء بالتشكيك في الطابع المطلق لتلك

القناعات الراسخة . وليس من قبيل المصادفة أن يكون أوّل مبدإ في طريقة ديكارت هو إعلان القطيعة مع الماضي . وفي السياق نفسه يندرج الشك في صحّة نسبة الأليـاذة والأوديسـة . كانت هاتان القصيدتان من الأسس التي بنت عليها الحضارة السـابقـة قيمهـا الأدبيـة والجمـاليـة . وكان التشكيك في صحّة نسبة هاتين القصيدتين والتشكيك حتّى في قيمتهما الجمالية بابراز التفـاوت بين المقاطع في القصيـدة هو شكل من أشكال التشكيـك في قيم هـذه الحضـارة والمجتمع الـذي انتشرت فيه . وبغض النظر عن صحّـة أو عـدم صحّـة الحجج التي سـاقهـا النقّـاد الـذين شكّوا في نسبـة «الأليـاذة» و «الأوديسة» وقيمتهما ، فإن أعمالهم كانت تؤدّي وظيفة معيّنـة ، وظيفـة التشكيـك في قيم المجتمع القديم وفتح الطريق من أجل التمكين لقيم أخرى تظهر على أنقاضه .

ونكاد نجزم أنّ هذه الوظيفة التي أدّاها منهج الشكّ عنـد ديكارت ، وشـكّ النقـاد في صحّـة نسبـة «الأليـاذة» و«الأوديسـة» وقيمتهما في المجتمع الفرنسي هي الوظيفـة نفسهـا التي أداهـا كتـاب طه حسين باصطناعه منهج الشكّ الديكارتي وشكّه في صحّة الشعر الجـاهلي . فقـد اصطنع طـه حسين منهج الشكّ الديكارتي بالذات ليقلب العالم القديم رأسا على عقب كما يقول ، وليشكّك في قداسته ويؤكد أنّه يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب ، بل إنّ الشيء الكثير منه قد أتى عليه الفسـاد ووجب الإعراض عنه وتعويضه بالجديد . لقد تشكّلت في رحم المجتمع المصري قوّة جـديـدة هي البرجوازية الصاعدة التي تصدّرت حركة التاريخ المصري خاصة مع حلول هـذا القرن ، وقـادت ثورة 1919 الوطنيّـة ، وكانت هـذه الطبقـة قـد بـدأت تسعى سعيـا حثيثـا للتمكين لنفسهـا في المجتمع . وجاء المشروع الليبيرالي الذي طرحته يحاول التعبير عن هذا التطلّع . وقد كانت حركة الفكر والأدب كلّها تتجـه هـذا الاتجـاه ، واتّخـذ الصراع بين قيم المجتمع السـابق وقيم المجتمع الوليـد صورة صراع بين القديم والجديد . كان دعاة القـديم يستنيمون الى قيم المجتمع القـديم ، وكان دعـاة التجـديـد يسعون الى زعزعـة هـذه القيم . ولعلّ أوّل خطوة في هـذا السبيـل هي التشكيـك في الطابع المطلق لهذه القيم ، فاصطنع طه حسين منهج الشك الديكارتي الذي لا يسلّم بصحّة شيء مهما كان إلاّ بعـد عرضـه على محـكّ العقل . كان اعتماد منهج الشـكّ هـذا يؤدّي اذن وظيفـة في الصراع الـذي كان دائرا في المجتمـع المصري ، ولم يكن مجرّد تـأثر أو تقليـد لتيـارات وأفكار أجنبية . وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي تسمح بالانقضاض على القديم والتشكيـك في قيمتـه ومن ثم التشكيك في قيم المجتمع الذي كانت البرجوازية الوليدة تحاول تهـديمـه لتبني على أنقـاضـه نموذجهـا الخـاص . وليس من قبيـل المصـادفـة أن يركّـز طـه حسين بـالـذات نقـده على الشعر الجاهلي ؛ فقد كان هو النموذج الأدبي الأعلى الذي قامت على أساسه القيم الأدبية العربية القديمـة

وأحد العناصر التي أسس عليها المجتمع القديم قيمه الفنية والأدبيّة ؛ فكان التشكيك في هذا الشعر ، بغض النظر عن صحّة البراهين والحجج التي قدّمت أو خطئها ، هو بوجه من الوجوه تشكيكاً في قيم المجتمع القديم ، وهو ما يفسّر لنا شدّة الهجوم الذي تعرّض له مؤلف هذا الكتاب والحملة الضارية التي وجهت ضدّه .

لقد كان طه حسين ، كما يقول مفتاح الطاهر ، ينقد الحاضر من خلال نقده للماضي[7] ، ولم يكن يدرس التاريخ لذاته ، بل كان يستخدمه ذريعة لنقد معاصريه ، ولم يكن الماضي يتعرض لنقد قاس إلاّ لقلب العالم القديم وبناء الحاضر على أسس جديدة . ولم يكن آستحضار العناصر الأجنبية يتمّ الاّ لأنها تساعد في عملية القلب هذه .

ولقد كان كتاب العالم الأزهري علي عبد الرازق : «الإسلام وأصول الحكم» يؤدي الدور نفسه حين حاول تأويل الإسلام تأويلاً جديداً يختلف عن تلك التأويلات التي قام عليها المجتمع القديم ؛ لذا فقد هوجم هجوماً عنيفاً هو أيضاً وامتحن بما آمتُحِن به طه حسين رغم أنّه لم يستلهم أفكارا ولا مناهج أجنبية ، وإنّما عاد إلى التراث الإسلامي يستلهمه ويقرأه في ضوء عصره قراءة جديدة تقلب العالم القديم رأساً على عقب ، وتهزّ تلك النفوس المستنيمة إلى قناعات قديمة راسخة هزّا عنيفا ، وتسعى إلى تأسيس قيم جديدة يستدعيها المجتمع الجديد .

**الهوامش**

(1) طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة 1977 . ص 67 – 68 .

(2) نفسه ، ص 62 .

(3) Meftah TAHAR, Taha Husayn, sa critique littéraier et ses sources francaises maison Arabe du livre Tunis, 1967, P 93 .

(4) Ibid, PP 150-151 .

(5) في الأدب الجاهلي ، z 100 – 200 .

(6) نفسه ، ص 65 .

(7) Meftah TAHAR. op. cit, p 81 .